شعرية الفضاء في قصص أبي العيد دودو
قراءة في مجموعة "بحيرة الزيتون"

د. علاَّل سنقوقة

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة الجزائر(2)

ملخص

تشكّل أعمال الكاتب الباحث الدكتور أبو العيد دودو معلماً أساسيا في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر ، بالرّغم من تعدد مناحي اهتمامه ، ولكنّ أسبقيته في الإبداع القصصي لم تحظَ –في رأينا-بالاهتمام اللائق ،ربّما يعود الأمر إلى قلّة إنتاجه وعزوفه عنه بعد تجربة لم يجد من يلتفت إليها نقديًا وهي مجموعته "بحيرة الزيتون"(1) التي ساهمت في التّأسيس لفنّ القصّ في السرد الجزائري الحديث .

Summary

Space in ABOU AID DOUDOU stories poetry
Reading in "Olive Lake Stories"

"Olive Lake" stories on the subject of the Algerian revolution in after the symbolic pure. And expresses the writer on this subject by the spatial code, where it becomes a producer of ideas and a founding factor of meaning.
Group includes thirteen story, and through their titles stand out themes, so focused on the threshold of reading the title and then we set off for space impact statement in the text, based on a set of specific ideas to the theory of the space
Author texts remain unexplored despite the significant contribution in the history of Algerian literature.

This approach has figured out a way to open a critical dialogue about the absence of follow-up cash in Algeria and the predominance of collective forgetfulness in Algeria .

ومن يقرأ هذا العمل ،يجد الكاتب مرتبطًا كثيرا بالفضاء، وقد أشار إلى ذلك الدكتور الراحل عبد الله ركيبي في مقدّمته(2)، بما يشي بتأثير المكان على نفسيته ورؤيته للعالم ،ومن هنا جاءت هذه الدراسة التي تهدف إلى الكشف عن أنواع الفضاء وقيمه الرمزية وعلاقته بالدلالة المهيمنة في النص القصصي عند أبي العيد دودو.

أحسب هذه المقاربة طريقا لفتح حوار نقدي حول غياب المتابعة النقدية في الجزائر وغلبة النسيان الجماعي على صوت فريد في تجربة القصّة في الجزائر .

يرى جيرار جنيت أنّ الفضاء* لعبة لسانية بامتياز ،لعبة اللغة(3)، ذلك لأنّها الأداة الأساسية للأدب ،تقف ندّا لبعض أشكال التّفضيء* في الفنون الأخرى مثل الرسم والتصوير والهندسة فـ"فضائية اللغة هذه،منظورا إلى اللغة داخل نظامها الضمني الذي هو نظام اللسان ،الذي يتحكّم في كلّ فعلٍ كلاميٍّ ويوجّهه لتبدو لنا جليةً في الأعمال الأدبية ..."(4) .

يفرّق جنيت بين مستويين لفضائية النص الأدبي :الأول يسمّيه فضائية الكتابة الظاهرة والثاني فضائية اللغة العميقة بحيث يغدو الأول مجرد رمز للثاني ،أي المستوى الرمزي للغة،ويعتبر جنيت التناص شكلا من أشكال الفضاء ،فالنص الأدبي خيوطٌ متشابكة من النّصوص بحيث تصبح جميع الكتب كتابا واحدا وحيث كل كتاب هو كتاب هو جميع الكتب والمكتبة هي المطابقة لفضائية الأدب ورمز هذه الفضائية الأكثر دلالة عنها (5).

تنزع الكتابة السردية بمختلف صيغهاإلى تحديد عنصرين هامين في عتباتها وهما المكان والزمن ، وفي هذا السياق، فإنّه من الضروري التفرقة بين الفضاء النصّي(المتخيّل) والفضاء المرجعي (الحقيقي) .

تختلف آراء المنظّرين في مسألة الفضاء ،إذ يبقى الأمر معتّما إلى الآن ولكنّ بعض القراءات وسّعت من دائرة النّظر، مما جعل معظم الدراسات الغربية منها والعربية ، تستفيد منها وتحاول أن تجد بينها علاقات ممكنة لدراسة الفضاء ، القصد منها تبيّن استراتيجيته ودلالاته العميقة البعيدة وهو الأمر المختلف الذي أسّسته هذه الدراسات، ليكون بديلا عن النظرة التبسيطية الكلاسيكية للفضاء الأدبي خاصة عند غاستون باشلار في كتابه "شعرية المكان"(6)، عندما حاول أن يتبيّن القيم الرمزية المرتبطة بالمناظر التي تتاح لرؤية السارد أو الشخصيات في أماكن الإقامة مشيرا إلى البيت والغرف المغلقة والأماكن المنفتحة ،الخفية أو الظاهرة ، المركزية أو الهامشية ..متوقّفا على التعارضات الممكنة بينها.

وجَدَتْ هذه النّظرة الجديدة قبولاً واستحسانًا وتوظيفًا لدى عديد الدّارسين العرب وهو أمرٌ هامٌّ، يشي بتطوّر النّظرة النّقدية العربية المعاصرة .

إنّ هدف هذه القراءة هو التّعرّف على بنية الفضاء القصصي في قصص "بحيرة الزيتون" وتحديد العناصر االمكوّنه له ،منطلقين من وجهات النّظر المعروفة في هذا السّياق، مركّزين على مفهوم "**التقاطب**" الذي اعتمدته الشّعرية الحديثة، خاصة عند كل من باشلار ولوتمان وميتران كمفهوم نقدي وأداة إجرائية .

تنظيم الفضاء:

المتأمّل في مجموعة "بحيرة الزيتون"، يلاحظ -بلا شك- أثر حياة أبي العيد دودو عليها عندما كان طالبًا في النّمسا ، ومن هنا دخل الفضاءُ عاملاً أساسياً ومحرّكاً لوقائع وشخصيات الحكاية ،كأنّ هاجس المكان كان من بين العناصر المؤثّرة في نفسية المؤلِّف ومن هنا نلاحظ أنّ سؤال الفضاء يفرض منطقه السّردي على النّصوص التي احتوتها المجموعة .

قصص المجموعة بلغت ثماني عشرة قصّة ومعها نص حواري مسرحي، تتجاذب هذه النصوص ثلاثُ موضوعات* أساسية على الأقل هي :الثورة التحريرية ،الهجرة أو الغربة خارج الوطن، نقد استئثار الخونة بالامتيازات بعد الاستقلال .

وطبيعي أنّ الفضاء ينسجم مع طبيعة هذه التوجّهات "الأيديولوجية" في النصوص ،إذْ نجد القصص المشيدة بقيمة الاستشهاد في الثورة التّحريرية تضع ترسيمة* طوبوغرافية مماثلة للفضاء وهو الفضاء الذي يشارك به أبو العيد دودو نظراءه من القصّاصين الجزائريين بعد الاستقلال .

في قصة المجموعة "بحيرة الزيتون" –التي يمكن أن تكون أنموج هذا الاتجاه_ نجد الفضاء المفتوح المتعدد :القرية –الجبل-البيت-الخباء-الثكنة العسكرية الفرنسية/ المعتقل ...كما نجد هذا الاتجاه في قصص أخرى مثل : القائد/ الفجر الجديد/ نضال/ جاء دورك...وهي نصوص تتقاسم الرسم الأساسي للفضاء .

يذكر الراوي مكانين متقابلين في النص :البيت / الخباء . كثيرًا ما ارتبط الأول باستقرار القرية وابتعادها عن الثورة أمّا الثاني فهو يرمز إلى تشرّد أهل القرية وهروبهم من القرية التي هي أيقونة حقيقية تدلّ على حياتهم ،يرتبط الفضاء بهوية الشخصيات وأفكارها وطموحاتها وآلامها ، فيتحرّك ويتحوّل بتحوّلها في السرد القصصي .

يورد السارد مجموعة من العناصر المؤثثة للمكان ، يركز على "الخباء" محاولاً تحقيق مجموعة من الأفكار الإيديولوجية، حيث يذكر "الكانون" و "الرحبة" ثمّ "العين" والفضاء الرابط بين الخباء والعين أو ينبوع الماء وهو فضاء مألوف للشخصية الريفية في المتخيّل السردي وله علاقة كبيرة بالمرجع كما لايخفى على أحد ،إذ تترامى أشجار الزيتون والتين وغيرها من النباتات والأشجار الأخرى فضلا عن الغابة التي تغطي "الجبل"...

يتجلّى المكان هنا لا نهائيًا ،مفتوحاً، ولكنّه من الجانب الآخر للشخصيات ليس كذلك ،إنّه متأزّم خانق تفتقد فيه الذّاتُ حرّيتها وإنسانيتها جرّاء الممارسات الاستعمارية كما يصوّرها مخيال السّارد في مثل هذه النصوص ذات المنزع الثوري .

يتأسّس السّارد بوصفه متضامنًا مع الفضاء والشّخصيات وموجِّها لمسارِ الحكاية وفْقَ المنطق المنتظر الذي تصل إليه ، ولذلك فإنّ وجه الآخر/المستعمر لا يظهر كثيرا ،يأتي ذكره فقط في حالات عابرة وهو ما يجعل بنية الحكاية تتعرّى للمتلقّي في بداياتها الأولى نظرا للطبيعة الكلاسيكية في السرد .

الجزء الثاني من الفضاءات ،نجدها في قصص أخرى ،يبدو أنّ الكاتب كتبها عندما كان طالبًا في النّمسا وفيها تتجلّى صورة الغرب في مقابل صورة الشرق ، وهنا تبرز الثنائيات المستترة المستعارة من الفضاء : التقدم/ التخلف ، الحضارة/ الوحشية ، العلم /الجهل ، الجرأة /الخجل ،الصدق/ الكذب ، الأمانة /الخيانة ...تتولّد هذه الدلالات من التوظيف القصصي للفضاء.

تصبح المدينة أساسيةً هنا ، ولكنّها تبقى ملعونة في نظر الشخصيات كما هو الحال في قصص : مجرّد بطاقة ،الشعاع الأبيض،المنام،الحبيبة المنسية ، الحلم ...

ففي قصة "الحبيبة المنسية"(7) يسافر البطل(الذي لا يسميه الكاتب) ذو الأصل القسنطيني إلى فيينا ،هناك يفاجأ بالبرد والوحدة في كلّ مكان ونستطيع تفهّم الأمر من خلال التعرّف على الأمكنة التي تحتوي الشّخصية وهي :الغرفة –الحديقة – الشارع– المقهى ، وهي إشارات واضحة إلى الآلام التي يشعر بها الكائن المهاجر في هذا الفضاء الإجباري ، والموت البطيء للكائن .

"الجبل" باعتباره فضاء اختيارياً على نحوٍ ما ،يهيمن على النصوص من البداية إلى النّهاية وتكاد دلالته تعرف في السياق أو خارجه ، ففي نص " المنام" يحكي محمد الطاهر لـ"مولود" في مقصورة القطار المتّجه إلى مدينة بلغراد ، حكايته مع المكان المُستلَب المتجلّي في القرية والجبل والغابة والمقهى حيث كان محمد الطاهر ينقل الرسائل إلى قيادات الثورة .

نلاحظ هنا التّقابل الواضح بين الفضائين الإجباري والاختياري ، بين المدينة والريف ، عن طريق **الحلم** بالعودة إلى المكان الأول وهي الطريقة التي ينزع إليها السّارد في النصوص التي تقابلُ بين الريف والمدينة .

يشكّل الرّيف، في منطق الشخصيات، السعادة المفقودة ولذلك ، ينتهي المطاف بـ"الحسين" إلى التفكير بأنْ ينتحر من أعلى جسر المدينة عندما لا يستطيع أن يكسب قُوتَه فيها، في حين ترك أولاده في القرية يعانون الجوع ، فقد اكتشف أنّ المدينة ليست كما تراءت له في طريقه إليها ،منيرة متلألئةً بالأضواء، أشبه ما تكون بـ"الجنّة" بل هي مرادفة للمعاناة والفقر والتشرّد والموت البطيء.

تظهر المدينة هنا مرتبطة بعسكر المحتلّ،ولذلك تغيب فيها الحرّية ويشعر الحسين بالاختناق فيثور على أحد عناصر الشرطة ،تتجلّى نزعة الحنين بوصفها الطريقة الأولى والأخيرة لاسترجاع ما ضاع من الشخصيات المحرّكة للأحداث في نصوص أبي العيد دودو، وهي علامة على اتجاه الكاتب الغالب على القصص في هذه المجموعة ،تظهر في شكل إيديولوجيا من السهل التّعرّف عليها ومعرفة طرائق تجسيدها سرديًا .

يركّز الكاتب على الفضاء القروي ،حتى في نصوص المدينة فيحدّد تضاريسه بشكل متكرّر : الوادي،الجبل، الزيتون، التين، العين ، المقهى ، الطرق الضيّقة ،...في المقابل لا يكاد يقدّم تفاصيل كبيرة عن الفضاء المديني وهي آلية سردية الغرض منها تعزيز رؤية الراوي.

تقديم الفضاء:

يرى جون بيير غولندنستن(8) أنّ تقديم الفضاء يمكن أن يتم بعدة طرق بوساطة آلية الوصف وهي :

-تقديم الفضاء جملة واحدة من بداية القص بحيث يسمح هذا بوضع الشخصية في إطارها وتصور حياتها وسط الأشياء الأليفة التي تحيط بها.

-يرتبط الفضاء في الحكي بحسب حركة الشخصية ،بحيث تكون مستكشفة للمكان المحيط بها وهذا يقتضي طبيعة خاصة في السرد.

- توقّف الكاتب على جزئيات وصفية ، يشبهها غولدنستن بعملية ضبط الصورة ، مثل تقديم الصورة الأمامية في العرض المسرحي، بينما تبقى الخلفية معتّمة متروكة للمتلقي بعد عملية القراءة .

وعندما نعود إلى قصص "**بحيرة الزيتون**" نجدها من صنع السّارد الذي يضطلع بدور الراوي العليم بكلّ شيء، وعادةً ما تتجلّى المعالم الفضائية من خلال آلية الوصف المباشر في بدايات القصص .

كمثال على ذلك هذا المقطع الافتتاحي من قصة المجموعة " بحيرة الزيتون" : "صوت خافت عذب تردد صداه في زاوية الخباء المتهرّي ..."(9)

وكذلك هذا المقطع:" أجال الشيخ نظرته في الخباء،كأنه يبحث عن خلل أو عطب فيه ورجعت به أفكاره قليلا إلى الوراء.كان الخباء يقع على مرتفع من الأرض،يشرف على سهل مائل، تقتعده أشجار الزيتون المتلاصقة ،وحين تعبث الريح برؤوسها تحت أشعة الشمس الزاهية تبدو كبحيرة غامقة لا معة متوجة .وكان الفضل في وجود هذا الخباء يرجع الى الشيخ وحده .فهو الذي بناه بعد أن أحرقت الدار في أول مرة وضل فيها الجنود الى القرية ،لقد أخرجوا من كان فيها وأشعلوا فيها النيران،غدرا وتشفيا فأقامت فاطمة وأمها مع الشيخ مدة الى ان بنى لهما هذا الخباء في أقصر وقت ممكن.ولذلك كان يشعر بنوع من الفخر،كلما اجتاز عتبته"(10)

وكذلك:"انقضى الليل،وأطلّ على الدنيا صباح جديد،لا يقل عن الذي سبقه اشراقا وبهاء وألقًا.فقالت شريفة وهي تشرئبّ بعنقها الى الخارج،الى الشمس الساطعة ،كان لابدّ لها ان تهرب من الوخم ورائحة العقاقير الخانقة .فساعدتها فاطمة على الوصول الى الرحبة ،فأجلستها فوق حصيرة فنامت تحت أشعة الشمس الحانية،بينما انصرفت فاطمة للاعتناء بأمر الخباء وتنظيفه."(11)

في قصة "خيبة"تبدأ القصة على النّحو الآتي:"وقف أحمد علي في الساعة الثامنة مساء أمام خمارة ليلية ،وقد ظهرت على ملامحه كل علامات البهجة والهدوء،ورفع رأسه

ببطء،ليتأمل الأضواء الزرق الثاقبة ثم أعذر ببصره صوب نور الفرقة الموسيقية التي كانت ملصقة على جانب الباب داخل إطار أسود،تعلوها خروف براقة ،وتحيط بها براعم صناعية جميلة (12)

وفي قصة:"**حجر الوادي**"**(13)** جاءت افتتاحية النص على النحو الآتي:

"انتهى مختار من كنس خبائه،وتعمّد أن يفرغ منه على عجل.لأنّه كان يشعر بما يشبه الاختناق .ولم يكن ليقوم بهذا العمل في ظروفه الحالية لولا حرصه على نظافة خبائه في هذا اليوم بالذات فهو لم يكنس منذ أسبوع وكان عذره الوحيد في ذلك أنه كان يعاني اضطرابا نفسيا حادا.جعله لا ينتبه لما يحيط به من قذارة وعفن." (14)

ومن دون شك فإنّ هذا الشكل في تقديم الفضاء، مرتبطٌ بالسرد وموقع السارد الذي يحيل في أغلب الأحيان إلى المؤلّف الضمني .

لا تقف نظرة السارد على الجزئيات الدقيقة من الفضاء ، إذ لا يتعدّى النّظرة البرانية الظّاهرة وكأنّ الكاتب يسعى إلى تأطير أحداث القصة ضمن ترسيمة تكاد تكون واحدة في النصوص كلّها وهو ما جعلنا نضع هذه النّصوص –بالنّظر إلى أسلوبها في الحكي –ضمن تيّار الواقعية *.

وظائف الفضاء:

من الطبيعي أن لا يكون المكانُ في السّرد مجرّد ديكور زائد ،لا بدّ أنّ له وظائف متعددة ويذكر بعض الدارسين مجموعة من الأهداف مثل: التوقّع والاحتمال والتّخيل ،حيث إن مجرّد ذكر مكان في القصة يجعل المتلقي يتساءل :مالذي سيحدث؟ثم ماذا بعد ذلك من الممكن أن يحدث أيضا؟ فهي وسيلة تدخل في عملية إنتاجية المعنى(15) .

يظهر الفضاء وفق بعدين :الأول قابل للتصديق والثاني غير قابل للتصديق ، الثاني ينسحب على الأمكنة الغرائبية السحرية ، من جهة أخرى تقف جزئيات

المكان دالة على الشخصية نفسها،فما ينقله لنا وصف غرفة في سياق سردي ما ينطبق على نفسية وأفكار الشخصية التي تسكنها .

الوظيفة الثانية هي الوظيفة الرمزية المتعارضة مع المجال الفكري والاجتماعي والاقتصادي السائد أو المهيمن زمن الحكي وهو المتجلّي بكل وضوح في الفضاءات التي اشتغل عليها أبو العيد دودو في "بحيرة الزيتون" .

يقف (الكانون)(16) مثلا في القصة الأساسية في المجموعة كديكور رمزي له أبعاده الاجتماعية والثقافية والتاريخية في القرية أو الريف بينما في المدينة نجد المقهى والغرف الباردة التي تشي بما تعانيه الشخصية من انفصام وانحطاط عاطفي ووجداني .

يتحوّل الفضاء محرّكاً ومنشّطاً لحركة الشخصية ،بمعنى أنّه يتجاوز دوره التقليدي في القص، ومثل ذلك رغبته في سحب بطاقة من البريد وصلته ،بنى عليها آماله العريضة وانحرفت الأحداث في السرد جرّاء بروز فضاء محتمل (17)، فبدل أن تطرده المستأجرة من الغرفة أصبحت رحيمة به ،سخية عليه ، ولكن عندما يقطع كلّ ذلك المكان الفاصل بين البيت والبريد يجد أنّ الأمر ليس كما كان يتوقعه ،فقد وصلته بطاقة تشير الى نهاية إقامته في البلد وهي لعبة لتخييب أفق القارئ كذلك .

في النّهاية يجب القول إنّ قصص أبي العيد دودو في الغربة أكثر ارتباطا بحميمية المكان ،هناك شدّ عاطفي بين اللغة وبين المدلول الذي تحيل إليه ،في حين تخفت وتضمر هذه الحميمية والألفة بين اللغة والفضاء في القصص التي تتحدّث عن الثّورة .

هوامش البحث:

1-د.أبو العيد دودو ،بحيرة الزيتون، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،ط2، 1984

2-يقول د.عبد الله ركيبي معلّقا على المجموعة :"ثم هناك أيضا في قصص الأخ دودو موضوع يلحّ عليه كثيرا وهو بلا شك نتيجة لتجربة عاشها الكاتب بنفسه وعانى منها ..وهي تجربة "الاغتراب" عن الوطن،وقد كانت الغربة بالنّسبة له كالمنفى الروحي الذي أرّقه وعذّبه...كان يحيا كلّ لحظة في وطنه ومع أبناء شعبه وعبرّ عن ذلك في قصص عدّة لعلّ أروعها هي :"مجرّد بطاقة" التي هي قطعة حيّة من وجدان الكاتب وذاته ..." ص 11

3-جيرار جنيت:الأدب والفضاء،ضمن كتاب (الفضاء الرّوائي) ترجمة:عبد الرحيم حزل،إفريقيا الشرق،المغرب،ط1، 2002، ص13

*spacialité

4-جيرار جنيت ،الأدب والفضاء ،ص13

5-المرجع السابق،ص18

6-غاستون باشلار: جماليات المكان ،ترجمة :غالب هلسا،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت ،لبنان ،ط2، 1984

7-بحيرة الزيتون ،ص 127 وما بعدها

8-جون بيير غولدنستن:الأدب والفضاء، ضمن كتاب :(الفضاء الروائي)،ص19

9-بحيرة الزيتون ،ص15

10-المصدر نفسه،ص23

11-المصدر نفسه،27

12-المصدر نفسه،33

13-المصدر نفسه ،ص189

14-المصدر نفسه ،ص 189

*يسمّي الدكتور عبد ركيبي نزعة أبي العيد دودو بـ"الواقعية الجديدة" وهي الواقعية الفنية –كما يقول- التي تعنى بالإنسان أولا وأخيرا بلا "طنطنة" ولا صراخ ولا افتعال...الواقعية التي لا تنقل نقلا آلياً"فوتوغرافيا" بل تأخذ منه ما تعلو عنه بالمعالجة الفنية ...بالهمس ،بالإيحاء...باللفتة المعبّرة

..بالحوار الطبيعي الجذّاب (ينظر مقدّمة المجموعة ،ص6) ، وإن كان عبد الله ركيبي ينبّه في مواضع أخرى إلى قصص رآها أقلّ قيمة من غيرها حيث طغى عليها الخطاب المباشر،فقد بدا لنا الرّاحل عبد الله ركيبي منصفاً في تقديمه للمجموعة ولم يقف مادحاً لصديقه أبي العيد دودو – رحمه الله–

15- جون بيير غولدنستن:الأدب والفضاء، ضمن كتاب :(الفضاء الروائي)،ص33

16-بحيرة الزيتون،ص22

17- جون بيير غولدنستن:الأدب والفضاء، ضمن كتاب :(الفضاء الروائي)،ص37